الجندر ومشكلات الهوية الرقمية للمرأة العربية
دراسة إثنوغرافية على عينة من مستخدمات شبكة الفيسبوك بالجزائر

حنان حاجي•، مصطفى ثابت••

مقدمة

شكلت المجتمعات الافتراضية وشبكات التواصل الاجتماعي أرضية خصبة لتنامي نوع جديد من الهويات أطلق عليه "الهوية الرقمية" (Oakley 1998)، ولئن اختلف الفضاء الذي تتطور فيه هذه الهوية - من حيث كونها ذاتا "أفلتت" من ضوابط الفضاء العام الحقيقي ومن معايير المجتمع الواقعي- (Trauth 2006) فإن إملاءات مخصوصة تمارس على الذات داخل الفضاءات الرقمية؛ وهو ما يدفع بالذات الافتراضية نحو التلون، حسب مقتضيات كل مجتمع افتراضي تنضم طوعًا إلى مستخدميه.

وبالتالي؛ فإن تشكيل الهوية يمر بحالة أزمة (Fayon 2008) تتمحور حول الكثير من الأسئلة المتعلقة بالذات، وهذه الأسئلة بحاجة دائمة للأجوبة من أجل تحديد واضح المعالم لهوية الأنا، وتظهر الأزمة في درجة القلق والاضطراب المرتبط بمحاولة المرأة تحديد معنى وجودها في الحياة، من خلال محاولة اكتشاف ما يناسبها من الأهداف والأدوار والعلاقات الاجتماعية ذات المعنى أو القيمة (Hill 2006).

ومع الإصرار المستمر للمرأة الجزائرية على الوجود في الفضاء الافتراضي والمجتمع الرقمي، وتجاوزها لحدود البيت، برز الكثير من التناقضات والصراعات الفكرية والأيديولوجية حول مركزها وأدوارها الاجتماعية الموكلة إليها، على أساس أن تحييد الجسد هو حل يسمح للمرأة بحركة أكثر حرية وفاعلية ومحاولة لإيجاد مخرج للتخلص من إلحاح التمايز الاجتماعي وما يترتب عليه من انعكاس لبعض الرؤى النسوية الغربية التي قدحتها المرأة العربية في وقت مضى(Guyonnet et 2004)، إلا أن المرأة العربية عامة والجزائرية بصفة خاصة وفي ظل حضورها في الفضاء الافتراضي وجدت نفسها في قلب الصراعات الأيديولوجية والسوسيولوجية حول أدوارها الاجتماعية، فأصبحت هويتها غير محددة، فلا هي المرأة صاحبة الرسالة طوال الوقت، ولا هي المرأة التي توافق توقعات بعض المجتمعات العربية أن ترى نفسها عليها بوصفها أما – أو زوجة – أو ابنة – أو أختا (Davis 2019).

• طالبة دكتوراه، تخصص الاتصال الجماهيري، وعضو بمخبر جودة البرامج في التربية الخاصة والتعليم المكيف بجامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر.

•• أستاذ محاضر أ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر.

من خلال هذا الطرح تسعى هذه الدراسة للوقوف على واقع حضور المرأة الجزائرية في الفضاء الافتراضي عبر شبكة فيسبوك، ومظاهر انعكاس هويتها وفق السياق الثقافي والاجتماعي للمرأة في المجتمع الجزائري، ومدى تأثر ذلك نسبيًا بالصورة النمطية التي صورتها بعض مضامين الإعلام الجماهيري التقليدي.

وتتمثل الفرضية الأولى للدراسة في أن المرأة الجزائرية لم تتحرر من قيد الجندرة بفضل ولوجها شبكات التواصل الاجتماعي، بل إن شبكات التواصل الاجتماعي قد كرست بعض المشكلات الجندرية جديدة داخل هذا الوسط الافتراضي وخارجه، ففكرة تخلص المرأة من نوعها الاجتماعي قد تحقق بالضبط عكس ما هو منتظر في كثير من الحالات، على الرغم مما يبدو من إمكانيات وفَّرتْها هذه الشبكة الرقمية. وتوظف الدراسة الراهنة أسلوب التحليل الإثنوغرافي من المستوى الثاني من الدراسات الوصفية العربية والأجنبية، والتي غطت مدى زمنيًا بدأ من سبعينيات القرن الماضي وحتى اليوم.

الدراسات السابقة

بذلت عدة محاولات لرسم خريطة لتأثير الجندر في الهوية الرقمية، حيث أجرت دراسة Lisa King تحليلا مقارنا بين ٢٠ مجتمعًا في الإنترنت؛ لرصد علاقة التأثير والتأثر بين النوع الاجتماعي والإنترنت في محاولة لترجيح أحدهما على الآخر، الأول: ينطلق من أن مجتمعات الإنترنت قائمة في الأساس على المساواة، والثاني: تفترض فيه الدراسة أن التفاعل في المجتمع الافتراضي ما هو إلا مجرد انعكاس للتفاعل في العالم الحقيقي الذي تكون فيه الهيمنة للرجل في بعض الثقافات العربية، وتوصلت الدراسة إلى نتيجة رئيسة، مفادها أن العدالة بين النوعين في الاتصال عبر الإنترنت أمر غير قائم، وتمثل الإنترنت وسيلة مهمة لتحميل ثقافة النوع بوصفها مساحة آمنة للتنفيس وعرض الأفكار (King 2000).

كما استعرضت دراسة Ebrahimit Marziyeh and Salaverría Ramón (2015) كيفية اختلاف السلوك الافتراضي والحقيقي لمستخدمي الفيسبوك من قبل المسلمات الإناث، وكيف تدفعهن الشبكات الاجتماعية نحو نوع من "التغريب"، وتم جمع البيانات من خلال تحليل محتوى ٥٥٠ ملفًا شخصيًا عامًا على شبكة الفيسبوك لمستخدمات إيرانيات، بالاستعانة بأداة تحليل المحتوى في شكله الكمي، وتوصلت الدراسة إلى تأكيد وجود علاقة بين استخدام الألقاب ونشر الصور من دون الحجاب على ملفات تعريف الفيسبوك، ويمكن تفسير ذلك بالقلق بشأن العواقب التي قد تأتي من القيود الحكومية والواجبات الدينية أو التقاليد التي تبدو غير موجودة على فيسبوك، والعدد الهائل من الصور في أرشيف الإناث دليل على ثقافة الانفتاح الشديد، وهي ظاهرة دولية يشارك فيها الأشخاص بأنفسهم بحرية مع الآخرين (Marziyeh et Ramón 2015)، فضلا عن الدراسات العربية التي ركزت على الموضوع نفسه، ومن بينها دراسة تومي فضيلة ويسعد زهية، التي حاولت البحث في إشكالية التمثلات الرقمية للمرأة الجزائرية عبر الفضاءات الافتراضية، من خلال استكشاف جدوى وأهداف وجود المرأة في صفحتها

مستعملة للفضاء الرقمي، ورصد اهتماماتها ودوافع وجودها في الصفحات النسوية، وخلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج، أهمها أن المرأة الجزائرية استغلت الفضاءات الرقمية فأوجدت لها مساحات كبيرة للتعبير عن آرائها وانشغالاتها حول قضايا اهتمامها، لكن استغلالها لتلك المجالات ظل يقتصر على عدد من الموضوعات الخاصة جدا، والمتعلقة بحياتها اليومية في الجانب الاجتماعي بين الزوج والأولاد والأسرة والجمال والزينة، ولم تبرز اهتمامات خارج هذا الإطار إلا ما ندر (فضيلة، وزهية ٢٠١٧).

وتتبعت دراسة بلقاسم أمين بن عمارة (٢٠١٨) مقاربة مجموعات الفيسبوك النسائية الجزائرية؛ لمعرفة مدى تشكل هذه المجموعات في فضاء عمومي هامشي داخل الفضاء السيبري، لاسيما بالنظر إلى الصعوبات التي تواجهها المرأة الجزائرية بشكل منتظم في ولوج الفضاءات العمومية الفيزيقية والوسائطية من المنظور الإبستيمولوجي، واتّكأت الدراسة على نظرية الفضاء العمومي الهامشي بوصفها نظرية أساسية للدراسة، وتوصلت لنتيجة، مفادها أن الشرائح الهامشية في الجزائر أتاح لها الفيسبوك عمومًا ومجموعات الفيسبوك خصوصًا حيزًا مفتوحًا ومرنًا، مكّنها من الولوج والحركية داخل هذا الفضاء من دون ضغوط ولا إكراه، كما وفّر لها مساحات نقدية واسعة مكّنتها من إنتاج وتداول المضامين النقدية والتفاعل معها ضمن منحى دائري من دون تدخل أو وساطة أو حجب، ُمنشئةمجالاً عموميًا هامشيًا (بن عمارة ٢٠١٨).

ورغم أن الدراسات الغربية والعربية السابقة سعت إلى رسم ملامح جندرة الفضاء الافتراضي، فإنها قدمت مراجعات كمية تخلو من التحليل النوعي، باستثناء دراسة King (2000)، كما لم تتضمن خصوصيات المجتمع المدروس ومدى التطور الذي مر عليه، خاصة أن الملاحظ لتاريخ هذه الدراسات يرى تقادمها فلم تعد نتائجها تؤتي أكلها؛ لأن التطورات التكنولوجية تتجدد يوميًا، أما هذه الدراسة فموسعة، تغطي دراسات الجندر في الفضاء الافتراضي العربي؛ لاستكشاف المشكلات الجندرية التي تواجه المرأة العربية والجزائرية على وجه الخصوص؛ وبالتالي فهي دراسة تحليلية إثنوغرافية شاملة تحاول رصد وتحديد ما إذا كانت هناك إشكاليات جندرية تعيق المرأة العربية في حيزها الافتراضي.

تساؤلات الدراسة

١. ما تمثلات الهوية الرقمية للمرأة الجزائرية؟

٢. إلى أي مدى توجد تحديات تواجه المرأة أثناء تقديمها لهويتها الرقمية عبر شبكة الفيسبوك؟

٣. ما حدود العلاقة بين الهوية الرقمية والالتزام الجندري من وجهة نظر المرأة الجزائرية؟

نوع الدراسة والمنهج المستخدم

وتندرج الدراسة الحالية ضمن الدراسات الإثنوغرافية الكيفية التي تحاول أن تستكشف وتفسر حقيقة تجليات هوية المرأة الجزائرية في الفضاء الافتراضي وفقاً للسياق الثقافي للمجتمع الجزائري،

وحيثيات تشكل تلك الهوية، من خلال رصد بعض الهويات الرقمية التي تم التعرف عليها، وملاحقتها وتتبع المنشورات والتعليقات، خلال فترة دراسة امتدت من ٢٨ سبتمبر ٢٠٢٠ حتى ٢٨ نوفمبر ٢٠٢٠، وذلك بالاعتماد على أدوات الملاحظة بالمشاركة والمقابلة المفتوحة مع مفردات العينة التي تمثلت في ٥٠ مستخدمة للفيسبوك؛ من النساء اللواتي يتحدث اللغة العربية، كونها اللغة الرسمية الأكثر تحدثاً في الجزائر، وذلك للإجابة على تساؤلات الدراسة والخروج بالنتائج العامة المطلوبة.

حدود الدراسة

تعد تلك الدراسة من البحوث الكيفية المعنية بالتحليل الإثنوغرافي للإنسان وبيئته الاجتماعية والثقافية، ولذا فإنها تقتصر على عينة محدودة من النساء الجزائريات مستخدمي فيسبوك والمتحدثين باللغة العربية، ومن ثم فإن نتائج هذه الدراسة لا يمكن تعميمها على المرأة الجزائرية بشكل عام، بل تُسهم الدراسة في فهم وتفسير أعمق للظاهرة من خلال العينة محل الدراسة وما اهتدت إليه الباحثة من تفسير وتحليل، وقد تفتح المجال لدراسات لاحقة يمكن تعيم نتائجها.

التعريف بالأداة وإجراءاتها

ركز الباحثان أثناء إجراء المقابلة البؤرية على جملة من الآليات نذكرها باختصار في:

١. الاهتمام باختيار الكلمات والمفردات.

٢. الاهتمام بالسياق.

٣. الاهتمام بالاتساق الداخلي.

٤. الاهتمام بالتعليقات المتكررة.

٥. الاهتمام بمدى التعمق وكثافة الإجابة.

٦. الاهتمام بدرجة تحديد الإجابة.

٧. الاهتمام بما لم يقل.

٨. وأخيرًا، تحديد الأفكار الموحدة والمختلفة وتدوينها.

توقيت المقابلة البؤرية: حددت بالفترة المسائية ليوم الجمعة الموافق لتاريخ ٢٧ نوفمبر ٢٠٢٠ وتحديدًا من الساعة الثامنة وحتى التاسعة مساءً.

وقد تم اختيار موعد المقابلة وتوقيتها بعناية تحقق أهداف الدراسة؛ إذ إن التاريخ يوافق يوم الجمعة الذي يمثل عطلة نهاية الأسبوع للجزائريين؛ مما يعطي فرصة وإمكانية أكبر لاستخدام شبكات التواصل الاجتماعي من قبل أفراد العينة، إضافة إلى التوقيت الذي يمثل بداية الحجر الصحي الوقائي

المعتمد من قبل السلطات والهيئات الحكومية للوقاية من فيروس كوفيد١٩، وهي فرصة أيضا محتملة لزيادة نسبة مستخدمي شبكات التواصل الاجتماعي.

خلفية نظرية عن الجندر والهوية الافتراضية

ألاً : الجسد الأنثوي في هرم النوع الاجتماعي

كثير من الكتابات وحتى الروايات صورت من المرأة كائنا ضعيفا دائم الحاجة إلى الحماية (Thompson 2012)، وكان الحديث عن المرأة حتى في الشعر ومنذ القدم يتم من خلال التغزل بمفاتنها وجمالها (Scott 1988)؛ مما جعلها عنصرا للإغراء، كما أن الممارسات الواقعية لم تنفِ ذلك بل أكدت عليه؛ إذ - وعلى مر العصور - كانت المرأة ذلك الكائن المتجاهل ذاته والمثبت جسده (Lorber 2011)، فلطالما تعرضت للذل وسلبت حقوقها وإرادتها وحتى حريتها، فعند النظر إلى صورة المرأة قديما نلاحظ أنها لم تكن كما يجب أن تكون، ففي الحضارة الهندية لم تكن تحظى المرأة بالتقدير الواجب (Horst et al. 2012)، بل كانت في ذلك الوقت محتقرة، واعتبروها نذير شؤم ومرادفا "للوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار" (Wajcman 1991). مما جعلهم يفرضون عليها أن ترمي بنفسها في النار بعد وفاة زوجها مهما كانت سنها، كما كانت النساء تعد جزءا من الغنائم في الحروب؛ فبعد النصر كان القادة العسكريون يُمنح لهم جسدها وتكون متاعا لهم، وكانت أيضا تباع كما تباع الأدوات وذلك بعد موت زوجها (Mead 2000).

وعند الانتقال إلى الحضارة الفارسية نجد أن المرأة قد حصلت على قدر لا بأس به من الحرية، ولكن بقيت حريتها هذه متعلقة ومرتبطة بجسدها (Plant 1997)؛ إذ كان لها حق المبادرة بخطبة الرجال وإغوائهم، وكان للفارسي الحق في اتخاد الخليلات إضافة لزوجاته، وهنا أيضًا يظهر أنه رغم حصول المرأة على الحرية فإنها دائما تتجسد في جسدها الذي هو رمز للمتعة عند الرجل.

وفي الحضارة الفرعونية كانت المرأة الفرعونية جذابة وفاتنة، وكانت تحاول دائمًا إثارة مشاعر الرجال وإغواءهم، وكانت في حد ذاتها تحاول أن تلبي رغبات جسدها (Wajcman 2007).

إن تقديمنا لهذا العرض عن مكانة المرأة في الماضي ما هو إلا استعراض لصورتها النمطية ورمزيتها في بعض المجتمعات وفي المخيلة الذكورية بالأخص، التي جعلت منها في كثير من الأحيان جسدا بلا ذات بوصفها أحياناً كأنها أقل رتبة من الذكر، مع تجاهل الجانب الأنثوي الفطري منها، والذي يوحي بأنوثتها وجمالها الذي تشع منه المشاعر الجياشة المعبرة عن الصفاء والإخلاص والصدق والحب.

ثانًيا: المرأة بين الجسد والذات

مع التغيرات والتحولات الاجتماعية تغيرت كذلك هذه النظرة النمطية للمرأة واكتسبت طابعا جديدا (عصمت ٢٠٠٩)؛ لأن المرأة حاولت إثبات ذاتها وفرض وجودها بوصفها كائنا ليس فقط للمتعة، وإنما

ذات لها دور بارز في المجتمع مثل الرجل (نصر الدين ٢٠١٤)؛ لأنها أصبحت متعلمة وتحرص على إتمام دراستها، وأصبحت تتقلد مناصب عليا، مسهمة بذلك في بناء صرح المجتمع ورافعة بذلك التحدي (بييار ١٩٩٤)، كما تمكنت - من خلال المنظمات الحقوقية والحركات النسوية المنادية بحقوق المرأة ومساواتها بالرجل - من تعديل السلطة الذكورية (Borwari and Hamami 2015) التي كانت تفرض عليها الطاعة والامتثال، وأصبحت بذلك تشارك الرجل في أفكاره، بل تقترح عليه وتبدي أفكارها، فقضت بذلك على النظرة التي جعلت منها جسدًا بلا ذات.

فخروج المرأة للعمل جعلها تبلغ مراتبَ عليا وتحقق ما كانت تصبو إليه (M et Wolf 1999) ، كما أنها حققت حريتها في مواصلة دراستها من أجل إثبات ذاتها وكيانها؛ فتمكنت من اختيار شريك حياتها الذي تمنحه جسدها برغبتها، مقررة علاقة شرعية تضمن لها حقوقها وتحفظ لها كرامتها وتصونها، كما تمكنت من أن تسمع صوتها في المنتديات العالمية بوصفها رئيسة وعاملة وباحثة وطبيبة وأستاذة، بل ومشاركة في الجيش ومدافعة عن الوطن (Wajcman 1991)؛ وبالتالي تمكنت من تغيير أوضاعها واستطاعت أن تقضي على تلك النظرة السلبية التي طالما طاردتها، وكونت لنفسها هوية كانت مفقودة على مر العصور بين أفكار ومخيلة قاصرة فرضتها الظروف الاجتماعية(Heath 1982) وأصبحت تقتسم مع الرجل أعباء الحياة، فنشأ ما يطلق عليه بتقسيم العمل الذي جعلها تساعد الرجل بل تكون له عونا في الحياة (Hammersley and Atkinson 1995) وبهذا النمط من تقسيم العمل ينشأ اعتماد متبادل بين الجنسين؛ ذلك التقسيم جعل الرجال معتمدين على النساء، والنساء معتمدات على الرجال، وبذلك استطاعت المرأة أن تحقق أول خطوة لها لتمحي النظرة النمطية عنها، ولدحض كل ما تبقى من الفروق الجندرية بينها وبين الرجل اتجهت لمواقع التواصل الاجتماعي مثلها مثل الرجل؛ لتحقيق بعض إشباعاتها ولتوصيل صوتها للعالم بأسره (Wright 2005)، وهذا ما سوف نناقشه في الإطار الميداني من الدراسة الحالية.

أبرز النتائج

أولاً : تمثلات الهوية الرقمية للمرأة الجزائرية

فيما يتعلق باختيار الاسم في الفيسبوك ومقارنته بالأبعاد الجندرية: توصلت نتائج الدراسة إلى أن أغلب المبحوثات يستخدمن أسماء مستعارة وذلك بنسبة ٨٩% مقارنة باللواتي وضعن أسماءهن الحقيقية، ويستخدم أغلبهن أسماء من اختيارهن من دون أية ضغوط أو إكراهات اجتماعية، والتي في الغالب تعبر عن حالة نفسية ما، أو عن فكرة ما تريد المستخدمة نقلها للآخرين الذين تتواصل معهم، وأجاب أغلب المستخدمات أنهن يستخدمن أسماء مستعارة خوفا من المضايقات بنسبة ٦٣% ثم التعبير بحرية بنسبة ١٦% ف ١٠% لأن أهلهن يعارضون ذلك.

وبخصوص اختيار الصورة الشخصية ومقارنته بالأبعاد الجندرية: فإن أغلب المستخدمات لا يستخدمن صورهن الحقيقية وذلك بنسبة ٩٦%، وكانت الصور التعبيرية أكثر الصور التي أجابت المبحوثات أنهن يستخدمنها بوصفها صورة شخصية بنسبة ٦١%، ثم صور الورود والمناظر الطبيعية بنسبة ١٥%، فصور الفنانات بنسبة ٧%، و٣% صور لأحد أفراد العائلة.

ثانيًا: التحديات التي تواجه المرأة الجزائرية عند تشكيل هويتها الرقمية

تشعر العينة محل الدراسة من جهتها بأن المجتمع يقيد استخدامها للفيسبوك ويفرض عليها تصرفات معينة، ولا تبدو هنالك حدود فاصلة بين الواقع والافتراض بالنسبة للهوية الاجتماعية للمرأة، وأغلب المبحوثات يرفضن وضع الفتاة لصورتها الشخصية، واتفقن جميعًا على فكرة الخوف عليها من هذا العالم، وتتأكد هذه النتائج عندما نجد أن نسبة ضئيلة يخترن صديقاتهن في الفيسبوك بحسب صورة البروفايل، ولكن هذا لا ينفي النسبة التي هي مع وضع الفتاة لصورتها الشخصية، وهي نسبة تقارب ٥٠%، وهذا ما يدل على أن هناك انفتاحا نسبيا، وبداية جديدة لفهم العالم الافتراضي على أنه جزء لا يتجزأ من الافتراض، وأمام الهويات المزيفة المتعددة لا شيء يمكنه أن يمنح المصداقية إلا اسم حقيقي بصورة شخصية حقيقية، على أن تكون في حدود الاحترام كما عبرت المؤيدات لوضع الفتاة لصورتها الشخصية.

وبالنسبة لاستخدام المرأة الجزائرية للفيسبوك لا يخرج عن السياقات الاجتماعية والثقافية للمجتمع؛ فالعلاقة التي تربط المرأة بالتكنولوجيا الاتصالية الجديدة هي علاقة تملك ديناميكية، بحيث تكثف استخدامها لهذه التكنولوجيا وفقًا لاحتياجاتها ومتطلباتها وسياقاتها الاجتماعية.

ومن بين المشكلات التي يجب تجاوزها لتحقيق المساواة الجندرية في البيئة الرقمية ما يأتي:

- بداية، يجب التخلص من مشكلة النفاذ الأساسية، فكم من النساء اللاتي يستطعن النفاذ إلى شبكات التواصل الاجتماعي؟ يحتاج هذا السؤال إلى المزيد من التحسين والتعديل، بالنظر إلى الخلفيات الطبقية والعرقية للنساء اللاتي يمتلكن أو لا يمتلكن منفذًا.
- ثمة مشكلة ثانية وهي "دور النساء" في صنع التكنولوجيا بوصفها أدوات للابتكار الفني والتغيير، فنادرًا ما يشتركن في التصميم والبحث اللذين يخلقان التكنولوجيا.
- المشكلة الأساسية الثالثة هي مشكلة "التمثيل"، فإذا كانت مصطلحات الثقافة الإلكترونية مثل المصفوفة (الماتريكس) (مشتقة من الكلمة اللاتينية "ماتر، التي تعني الأم" و"التوصيل بالإيلاج"، مرمزة بوضوح بلغة النوع، والمكتب أو الصفحة وليس البيت أو المنزل، فيصبح من المهم التساؤل كيف يصبح الفضاء الإلكتروني غير مصطبغ بالنوع؟.

فبالرغم من صعوبة تلك المهمة، فإنها ليس لديها خيار آخر عدا مواجهة الأمر، وعلى الرغم من المخاطر الواردة كافة، فإن الفرص التي توفرها الرقمنة ستتمخض عن مفهوم جديد للهوية يتمتع بقدر أكبر

من المرونة، فلا ننسى أن الرقمنة هي التي أوضحت الطبيعة المتناقضة لهويتنا وحقيقة انحرافنا عن المعايير القياسية بطريقة أو بأخرى في أي وقت مضى، وإن هذا الوضوح شرط أساسي لنصبح جزءًا من مجتمع متسامح، يتسنى لنا فيه الانفتاح والتصرف على طبيعتنا من دون الاختباء في الحيز الخاص، فما عاد علينا إعلان الحروب على التقنية والتفكير في مواجهتها، التي تعني في هذه الحالة -الهوية الرقمية- مواجهة الذات بقدر ما يتوجب استغلال إمكاناتها للتكيف وتكوين أنماط للتعايش والصمود في البيئة الرقمية تمامًا كما هي الحقيقية.

وبينت نتائج الدراسة الحالية أن المرأة الجزائرية محل الدراسة تستحضر الصبغة الجندرية في استخداماتها لشبكة الفيسبوك، فربط الواقع بالعالم الافتراضي من خلال متغير الجنس (ذكر أو أنثى) من شأنه أن ينقل معه كل القضايا المتعلقة بالمرأة في الافتراض إلى الواقع، سواء فيما يتعلق بالمرأة وتفكيرها وتمثلاتها الذاتية في الواقع أو بالنسبة لنظرة الرجل إليها، فالمتأمل في النتائج يجد أن أغلب الإناث يكتفين بنشر أسمائهن وحالتهن المدنية ونشاطهن، وتعرضن عن نشر صورهن الشخصية وسنهن، وهذه نسخة من الواقع.

ثالثًا: حدود العلاقة بين الهوية الرقمية والالتزام الجندري

إن الخطابات الجندرية للنساء في العالم الرقمي بغض النظر عن طبيعتها أو مرجعيتها تمثل شكلا من أشكال التبادلات الاجتماعية للأذواق والآراء؛ فالشبكات الاجتماعية مجال للتفاعلات الاجتماعية؛ أي أنها تقدم خدمات للتفاعلات الافتراضية للتعبير عن وجودهن من خلال تقاسم معارفهن ومواقفهن والتعبير عن هويتهن الرقمية من خلال بقايا الأثر التي تتركها على صفحتها مثل البيانات التعريفية.

كما تبين أن الهوية الرقمية التي تتيح للمستخدمات بناءها بالمحددات التي تريدها حتى تقدم نفسها في الفضاء الافتراضي جعل هذه الهوية تأخذ أشكالا متنوعة وتصطبغ بصبغات تفرضها البيئة الاجتماعية التي تؤثر بشكل أو بآخر على الممارسات الافتراضية؛ مما أدى إلى تجلي رموز الالتزام الجندري في الفضاء الافتراضي بالنسبة للكثيرات من المستخدمات، في محاولة لتقديم صورة مقبولة اجتماعيًّا من خلال تشكيل الهوية المرغوبة اجتماعيًّا، بدلا من تقديم الهوية التي تعبر عن الذات الحقيقية، خاصة أن موقع الفيسبوك يتيح الكثير من الخدمات التي إذا ما تم توجيه استخدامها شكلت صورة البروفايل الخاص بالمستخدمة التي من الممكن أن تمثل رموزًا تعبر عن الذات الملتزمة للمرأة، غير أن الاتجاه لتقديم حساب بهذا الشكل ليس بالضرورة أن يكون مقبولاً بالنسبة لمتابعي هذا الحساب؛ حيث تميل كثيرات إلى عَدّه تصنعا أكثر من كونه التزامًا وبناءً من المرأة الجزائرية لهويتها الرقمية تعبيرًا عن هوية الشخص الحقيقية، خاصة عندما يرتبط الأمر بعدد من الاستخدامات التي تبدو كأنها تخرج عن نطاق الهوية وتتجه إلى كونها هويات مبتكرة، وفيما يأتي اتجاهات المرأة نحو هذه الرموز المستخدمة للتعبير عن الالتزام الجندري:

- رغم أننا كثيرا ما نصادف في فيسبوك بعض الأسماء التي لها دلالة جندرية من قبيل: "متحجبة وأفتخر"، و"أم أيوب" وغيرها، غير أن الكثيرات من المستخدمات الجزائريات عينة الدراسة ممن يستخدمن أسماء مستعارة ٤١% فقط منهن يستخدْمنَ اسمًا له دلالة الالتزام الجندري، والبقية أسماء "كنية" ومشاهير ليس لها علاقة بهوية المرأة الجزائرية.

- تستخدم أغلب المستخدمات عينة الدراسة بنسبة بلغت ٧٨%صورًا تعبيرية ليست حقيقية لهن، غير أنهنُ يرجعن ذلك إلى العادات والتقاليد التي تمنعهن من وضع صورهن الحقيقية.

- وتتفق هذه الإجابات مع موافقة المرأة المنخفضة على الفقرات الخاصة بالالتزام الديني على فيسبوك؛ حيث نلاحظ أن المرأة محل الدراسة وإن كانت تستخدم الرموز المتاحة أمامها افتراضيا لعرض جانب من شخصيتها بوصفها فتاة ملتزمة أو متحررة، فإن هذا ليس بالضرورة نتيجة تأثير النوع الاجتماعي، وإنما له علاقة بطبيعة الفتاة وطبيعة الصورة التي تريد رسمها في ذهن المتابع أو لرغبتها في استمالة أشخاص محددين؛ فالأمر ينطوي بالدرجة الأولى على الانطباع الذي تريد المرأة تقديمه عنها والفئة المستهدفة من طرفها التي من المفترض أن تتلقى هذه الصورة.

- من جهة أخرى يتجلى الالتزام الجندري للمرأة الجزائرية محل الدراسة باستخدام هويتها الافتراضية، من خلال اهتمامها بنشر المواعظ والتعبير عن رفضها لبعض ما يحدث في المجتمع من تجاوزات دينية حسب رأيها، مثل الحفلات الغنائية وغيرها؛ حيث تبدي المرأة التزامها واتجاهها الديني؛ ومن ثم تقدم بعض النصائح لبقية الفتيات اللاتي تجتمعن معها في المجموعة ذاتها.

غير أن ملاحظة بعض البروفايلات عبر موقع الفيسبوك تشير إلى أن المرأة الجزائرية العادية مستخدمة الموقع ليس لديها حضور كبير في الصفحات الأجنبية التي تسعى لتقديم صورة عن الإسلام، ونلاحظ هذا من خلال اعتمادها على إعادة نشر بعض المنشورات الإسلامية عبر موقع الفيسبوك، التي عادة ما تكون باللغة العربية من دون المشاركة في حوارات معمقة حول التعاليم الإسلامية التي يفرضها المجتمع، والحقيقة أن هذه المشاركات تقتضي أن تكون للمرأة خبرة ودراية باللغة أولا، ثم بجوانب النقاش المتعلق بالممارسة الدينية والاجتماعية وحتى الثقافية في الفضاء الافتراضي؛ وبالتالي فإن الالتزام الجندري الرقمي مرتبط بشكل أساسي بالمجتمع وبحدود بيئة المرأة التي تحاول من خلالها نقل التزامها الذي قد يكون عادة خوفًا من المجتمع، وبالإضافة إلى ذلك فإن نشر المعلومات عن المتعقدات الاجتماعية والثقافية عبر الإنترنت ليس بالضرورة أن يخدم الإسلام والمسلمين؛ لأن كثيرًا من هذه المنشورات يستند إلى مصادر مجهولة، أو تقدم معلومات خاطئة، ونجد الكثيرات من المستخدمات يقمن بتداولها من دون التأكد من صحة مصادرها.

وتبين أن الكثيرات من مستخدمات مواقع الشبكات الاجتماعية يقدمن الدين في علاقته الوثيقة بالجذور الاجتماعية؛ حيث نجد البعض يعد استخدام المرأة لصورتها الشخصية مرفوضًا اجتماعيًّا، فيما يميل البعض الآخر إلى عَدّمرفوضًا دينيًّا، والحقيقة أن الفصل بين ما هو ديني وما هو اجتماعي قد يضع الكثير من الأشخاص في حالة من اللبس، كما أن المرأة من جهة أخرى على وعي بطبيعة المجتمع الذي يتابع نشاطاتها الافتراضية عن كثب لينتقدها في ظل مجموعة من الحجج الاجتماعية والدينية والثقافية، وبشكل عام، فإن الحجج الموظفة تعكس في أغلبها تمثلات تقليدية للمرأة وأدوارها، تمثلات نمطية للأدوار، أو تبخيس المرأة الناشطة، ويوظف المستخدمون على وجه الخصوص موارد ثقافية تقليدية وموارد ثقافية دينية لتقييم أدوار المرأة،ونادرًا ما نرى حججًا عقلانية أو ثقافية تحررية للدفاع عن المرأة ومناصرتها.

ومن خلال أداء المرأة الجزائرية لهويتها عبر الفيسبوك؛ فإنها تدرك تمامًا أن الكثير من الأحكام المستنبطة في ظل الأحكام الدينية التي أنتجها الفضاء الرقمي والتي تبدو أنها لا تتفق على أنها تمثل المفهوم الحقيقي للتدين المتعارف عليه اجتماعيًّا، وهذا ما تجلى من خلال موافقتها المنخفضة على فقرات المقابلة البؤرية، وفي هذا الإطار، بينت الدراسة أن أدوار المرأة الجزائرية في النقاش العام حول المضامين المتعلقة بها تبقى محدودة، فهي تكتفي في أغلب الأحيان بأشكال محتشمة من المناصرة، رافضة الانخراط في التصدي لخطابات التبخيس والعنف التي تتعرض لها مثلا النساء الناشطات في المجالات السياسية والفنية والاجتماعية، ويمكن تفسير ضمور هذا الحضور بطبيعة النقاش الذي تحتضنه صفحات الميديا التقليدية على الفيسبوك الذي يتسم بالاتصال العدائي وبالعنف اللفظي، وباستخدام المشاركين الرجال لأساليب عدوانية في التعبير، تتمثل في الألفاظ النابية والكلمات البذيئة.

مناقشة النتائج وأبرز الاستنتاجات

- في أول الأمر، اتجهت المشاركات إلى الإجابة على الأسئلة المفتوحة بشكل موجز وأسهمت مشاركة أو مشاركتان فقط في النقاش، وبدا كأن المنسق هو المتحدث الرئيس، وأن مظهر المشاركين كان جديا للغاية، وبعد حوالي ١٥ دقيقة من المناقشة الرسمية المتكلفة، أصبح النقاش تدريجيًّا أكثر حيوية، وبدأ المشاركون في التحدث مع بعضهم البعض، ثم أثار رأي طالبة جامعية صغيرة السن - لم تتحدث كثيرا في أول الأمر - درجة كبيرة من التفاعل والنقاش وانشغلت إحدى المشاركات الأكبر سنًا مع المنسق في حديث جانبي استغرق بعض الوقت، قبل أن تنهض إحدى المشاركات للإعلان أن وقت الصلاة قد حان، وبعد استراحة قصيرة لصلاة العشاء ولتناول وجبة العشاء، اجتمعت المجموعة مرة أخرى، وتضمن البرنامج مناقشة قائمة من الموضوعات المتعلقة بتشكيل الهويات الرقمية بشبكة الفيسبوك التي تم تطويرها في سياق مسح سابق، وذلك خلال الثلاثين دقيقة الأخيرة من اللقاء؛ ففي البداية لم تبدِ المشاركات اهتمامًا كبيرًا بترتيب الموضوعات

من حيث أولويتها؛ إذ إن موضوع سيكولوجية استخدام المرأة للفيسبوك كان الأكثر أهمية بالنسبة لهن، وفي حين سمحت للمشاركات بالتركيز على موضوعات تحظى باهتمامهن، نجحت مجموعة النقاش في الحصول على بيانات لم يكن بالإمكان الحصول عليها من قبل، وازداد النقاش حدة لعدم التوصل لرأي محدد بعد ما عبرت المشاركات عن وجهات نظرهن، والتي تم تقسيمها إلى نظرة متشائمة ونظرة متفائلة ونظرة محايدة.

- كانت المشاركات في الجماعة البؤرية التي تم إجراؤها قد أحالتنا إلى ثلاث أفكار، هي:

أ. الفكرة الأولى: أن البيئة المحافظة التي تنتمي إليها الفتاة تؤثر على طريقة تمثلها لذاتها، من خلال كثرة المنشورات الدينية أو انتقاء صور معينة، وتبرر المؤيدات لهذه الفكرة أن هناك من الفتيات اللاتي تربطهن بهن معرفة شخصية محافظات، ومن بيئة ملتزمة في الواقع وفي الفيسبوك، كما أن أغلب مؤيدات هذه الفكرة أشرن إلى أن المجتمع ليس بطابع واحد، وليس من الجيد أن نحكم على كل من تعرض هويتها الرقمية المحافظة بالتصنع، فربما هي نتاج تأثير البيئة المحافظة التي تعيش فيها.

ب. أما الفكرة الثانية: فهي أن الالتزام والتمثل للذات من خلال المنشورات والاسم والصورة الشخصية وحتى التعليقات ليس بالضرورة نتاج تأثير البيئة، ومن بين تعليقات المشاركين على ذلك (طالما آمنت أن الهوية شيء خاص والأهم من ذلك القناعة، والشخص ليس مضطرا لنشر منشورات تدل على هويته على مدار الساعة حتى يحول حسابه "لمعرض هواياتي" حتى يثبت ذاته أو هويته، والصراحة أغلب من يشاركون منشورات إيمانية طول الوقت من معارفي هم أسوأ الأشخاص ورأيي ليس للتعميم أكيد)، وأشارت أخرى إلى اعتقاد أن من تنشر مواعظ بصورة مفرطة أقرب إلى النفاق منها إلى الثبات، أو أنها ترغب في التأثير على أشخاص معينين، وهوية الشخص تبقى علاقة الإنسان بذاته وليس عرض تلك العلاقة أمام الملأ من أجل أهداف لا أخلاقية في أحيان كثيرة.

ج. أما الفكرة الأخيرة والتي تم الخروج بها: فهي أن أغلب المشاركات يرين أن تمثيلات النوع، والميل الجنسي، والتجسد في الثقافات الإلكترونية حافلة بالتناقضات التي تتصل في أساسها بالافتتان بمسائل الأجساد المعززة، وهوياتها، وإعادة إنتاجها، والنفور من هذه المسائل يميز السرد التخيلي العلمي التكنولوجي بوصفه وسيلة لتضخيم الجسد أو مهربا منه، ومع ذلك توجد هواجس بشأن التكنولوجيا أيضًا، وهذه الهواجس غالبا ما ترحل إلى المرأة وخصوصًا الموضوعين التوأمين، وهما الأمومة والتناسل، فنحن نتعامل هنا مع "تمثيلات" للثقافات الإلكترونية ومخلفاتها بوصفهما مؤسستين على النوع، فالجسد هو النقطة الأولى للتفاعل مع أي منجز تكنولوجي، سواء التكيف مع السلم الكهربي، أو تعلم تشغيل جهاز التحكم في الألعاب الإلكترونية، أو من خلال التسجيل

في أي موقع يطلب منك تحديد الجنس، فعندما ينشئ المستخدم حسابا أو بروفايل في الفيسبوك يطلب منه تقديم عدد من المعلومات الأساسية، ويعد "تحديد الجنس" المجال الوحيد الذي يحيل إلى السمات الطبيعية للمستخدم والتي تربطه بالواقع الفيزيولوجي، في حين تشير كل المجالات الأخرى إلى الجوانب السوسيوثقافية الخاصة بالمستخدم مثل: وجهة النظر السياسية، والحالة المدنية وغيرهما، فالمتغير الوحيد الذي يحيلنا إلى الواقع الطبيعي الفيزيولوجي هو الجنس أو النوع إذا تم تحديده بشكل صحيح، وإن ربط الواقع بالعالم الافتراضي من خلال هذا المتغير الوحيد من شأنه أن ينقل معه كل القضايا المتعلقة بالمرأة/الرجل من الواقع للافتراض سواء فيما يتعلق بالمرأة وتفكيرها وتمثلاتها الذاتية في الواقع أو بالنسبة لنظرة الرجل إليها، فالمتأمل في الفيسبوك يجد أن أغلب الإناث يكتفين بنشر حالتهن المدنية ونشاطهن، ويعرضن عن نشر صورهن الشخصية وأسمائهن وحتى سنهن، وهذا من المعلوم المتحقق في الواقع وانتقل إلى العالم الافتراضي أيضا. أما فيما يخص نشرها لحالتها المدنية، فهو في حد ذاته آلية من بين الآليات التي تضعها في صفحتها للتخلص من بعض الاضطهادات والمشاكسات حتى وإن لم تكن حالتها الحقيقية؛ فهي تضع مثلاً ؛ أم فلان، مخطوبة أو متزوجة، فقط لأجل ذلك وهذا أحد الأسباب التي تجعلنا نؤكد عدم خلاص الهويات الرقمية من النوع الاجتماعي.

- الاحتفاء بالتفكير الصرف المرمز في عبارات مجازية ثقافية إلكترونية بشأن العقل المتجرد من الجسد، يرفض كون الجسد محلاً للذاتية والهوية، وهذا الانتقال مؤسس على النوع، بما أن المرأة ظلت تقليديًّا تساوى بالماة والجسد، بينما يعد الرجل عقلاً /راشداً كاملاً ، هذا منطق جديد للهوية في عصر المعلومات مؤسس على النوع، وهو منطق يبقى على ثنائية العقل/الجسد المرمز لها بالذكر/الأنثى.
- اتفقت المشاركات محل الدراسة على أن هنالك فروقات شاسعة بين تطويع المرأة لهويتها الرقمية بشبكات التواصل الاجتماعي مقارنة بالرجل، ومرد ذلك إلى:

أولاً : الترسبات الذهنية والنفسية لكلا الجنسين التي تجعل الفرد يخاف التصريح بهويته أو يستحيي من ذلك.

ثانًيا: الرقابة الأسرية على أساس أن الفيسبوك عالم واسع ويحوي مجالات متنوعة قد تجعل الفرد يخجل من الظهور مع أسرته في ذلك المجال نفسه؛ مما يجعله يلبس قناعًا يختفي وراءه.

ثالثًا: خصوصية كل فرد ورغبة كل واحدة منهن، فغالًبا ما تميل المرأة للتخفي على عكس الرجل الذي يرى ذلك أمرًا عاديًّا.

رابعًا: المستوى العلمي والمكانة الاجتماعية، فإذا كانت المرأة ذات مستوى أكاديمي مرموق نجدها تضع الاسم الحقيقي وجزءًا من صورتها الحقيقية، مثل العينين واليد ونصف الوجه أو الجزء السفلي منها، أو أي شيء يعبر عنها؛ لتسهيل عملية التواصل مع جمهورها أو مع أصدقاء وزملاء الدراسة مثلاً .

خامسًا: اختلاف النوايا؛ فغالًبا ما نجد رجالا بحسابات ثانوية وأخرى وهمية؛ بغرض اصطياد فريسة لهم أو لإشباع أحد غرائزهم ومكبوتاتهم، وهناك نساء لديهن حساب ثانوي للفيسبوك للتعبير بحرية عن آرائهن أو للتحدث براحة مع من يقاسمنها الظروف نفسها، وتختلف نوايا النساء لكن كلها تصب نحو وجود سلطة أبوية، وزوجية، وأخوية على حساب المرأة، أما حسابها الرئيس فعادة لا يعبر عن توجهها، فما هو إلا الصورة التي تود تقديمها لمجتمعها نتيجة للخوف ممن له سلطة عليها، كالأب والزوج والأخ.

سادسًا: الغاية من استخدام الفيسبوك، فهناك من يرى المنصة على أساس التنكيت والترويح عن النفس والهروب من المجتمع، وهناك من يمد الناس بصفاته الحقيقية ويرى أن الفيسبوك ما هو إلا منصةللتواصل، فمثلاً المرأة الباحثة عن الطبخ تختلف عن الباحثة عن طرائق تطوير الذات والقيادة، ومن بين أبرز تعليقات المشاركات على ذلك ما يأتي:

"المرأة معرضة لمختلف أنواع التحرشات إذن هي تختار وبعناية ما تعرضه أما الرجل فهو أكثر أريحية فالشاشة تمنح له نوعا من الغشاء الذي يدفع بعضهم العدائية أو ممكن الاندفاعية، وهذا ممكن أن تلمسه المرأة كونها الجنس "الأضعف" مع أنني لا أحب هذه الكلمة، أما الرجل فهو غريزي (لا أتكلم عن كل الرجال)".

وأشارت مستخدمة أخرى إلى الآتي:

"الكل مثالي على الواقع، الكل يريد أن يعيش في المدينة الفاضلة ولكن أفعالهم لا توحي لا من القريب ولا من البعيد بذلك للأسف نرى أمهات يأخذن أسماء مستعارة لولوج مجموعات مراهقات يستخدمن ألفاظا بذيئة يتكلمن بأريحية أكثر وشابا بهوية أنثى للدخول لمجموعات خاصة بالنساء لإشباع فضوله وغرائزه ، لو الكل يتمشى بحساب موثق ربما ستتلاشى الفروقات والمفاضلات".

وأشارت مستخدمة أخرى إلى ما يأتي:

"فلا يخفى عنا اليوم أن هنالك من النساء لحد اليوم أبوها أو أخوها أو زوجها يعارض وجودها في الفيسبوك، وهناك أزواج يراقبون حسابات زوجاتهن، وهناك بعض الأخوات يتقاسمن نفس الحساب بغية المراقبة المجتمعية السائدة بمجتمعهم وهذه العينات موجودة وبكثرة في الريف الذي أنتمي إليه ريف تمالوس بولاية سكيكدة بالرغم من أننا في القرن الواحد والعشرين".

وأشارت إحداهن إلى آلية من آليات تجاوزها للجندرة، وذلك بوضعها للقب اسمًا لحسابها الشخصي، وبهذا معظم الناس يظنون أنها ذكر، وحتى الباحثة ظنتها مدة من الزمن ذكرًا، حتى صارحتنا بذلك وسط المناقشة.

- اتخاذ هويات متعددة يمكن أن يفيد الجهات الحكومية والقضائية في حل الكثير من القضايا، أما مشكلات الجسد فلا يمكن لهذا الفضاء أن يكون بذلك التأثير، بل يمكن أن يزيد من حدتها جراء الأزمات النفسية، والتي في كل مرة تعبر عن مجتمع تحكمه غرائزه بشكل كبير، أما فيما يخص الهويات المستعارة، ففي بداية الوقت من الممكن أن تخلق جوًا من الثقة في النفس على أساس أنك وراء الشاشة، ولكن مع مرور الوقت - خاصة إذا كانت مدة صداقاته طويلة - ستظهر حقيقة الإنسان، وإذا كان من النوع الضعيف فسيتعرض للتنمر على يد أصدقائه.

فقد عبرت إحدى المشاركات عن ذلك بقولها:

"لا أعتقد أن الهوية المستعارة تمثل دائمًا هروبًا من إبراز الهوية الحقيقية، شخصيًّا أستعمل اسمًا مستعارًا لكني من حين لآخر أضع صورتي الشخصية الحقيقية، ويمكن أن نجد العكس، أي من يستعمل اسمه الحقيقي ولكنه يلجأ إلى استعمال صور لأشخاص مشهورين أو غير ذلك، وأيًّا كان الاسم المستعار، ففي الغالب يتضح من خلاله جنس صاحبه ذكرا أو أنثى؛ وبالتالي فإن هذا لا يمنع استمرار ممارسات التحرش، خاصة أن هذه الممارسات لا تستهدف في العادة شخصًا بعينه أو بالأحرى أنثى بعينها بقدر ما تستهدف الأنثى بوصفها مجرد أنثى".

وأشارت أخرى إلى:

"أن اتخاذ هويات مختلفة على الفضاء الافتراضي ما هو إلا هروب من الواقع ولا يحل أبدًا مشكلة التحرش والاستغلال؛ ذلك أن نظرة الطرف الآخر الذي يستغل لا تتغير سواء مع إنسان في الواقع أو عبر منصات التواصل؛ لأن فكرته عن التحرش والألم مترسخة، سواء كان في الواقع أو في الفضاء الافتراضي، فإنه لن يتوانى عن التحرش والاستغلال، وهنا الوازع الشخصي فقط هو ما يفصل في المسألة".

وأشارت مشاركة أخرى إلى أن:

"مشكلة الجسد من بين أهم أسباب عدم التصريح بالهوية؛ لأن الجسد هو دافع أساسي للتحرش بين الجنسين، إلا أنها وقعت في مشكلة الجسد مرة أخرى بوضعها لصور مغرية تعبر عن تحررها، وفي الوقت نفسه تقع ضحية لمفترسيها، وأخرى تضع صورًا تعبر عن شدة تدينها؛ مما يشد أنظار جميع الرجال الناضجين منهم، وأخرى تعبر عن قوتها وتحررها من معتقدات المجتمع فُيلحِقون بها الضرر بوصفها مشجعة للفيمنيست أو أكبر من ذلك الماسونية".

- بالنسبة لعلاقة الهوية الجندرية بتشكيل هوية المرأة خلصنا لرأيين متعارضين:

الأول: يقر بزيادة حدة الخطابات الجندرية بالفيسبوك؛ حيث عبروا عنها بما يأتي:

"العالم الافتراضي هو انعكاس لما هو موجود في العالم الواقعي، وما دامت السلطة الأبوية تهيمن على الواقع، فهي بالضرورة تنعكس أيضا في الافتراضي، المسألة هي مسألة تنشئة اجتماعية؛ فالذهنيات لا تتغير بالمرور من الواقع إلى الافتراضي، والملاحظة البسيطة للتفاعلات الافتراضية في مجتمعاتنا بإمكانها الكشف بسهولة عن ترسبات الكثير من الممارسات الأبوية في هذا الفضاء، كتقديم ملاحظات عن لباس المرأة وسلوكها أو الطعن في أهليتها لتقلد مناصب معين أو حتى معارضة مسائل بسيطة كخروجها للعمل... وهي مواضيع تطرح في الواقع بمجتمعاتنا".

فالفيسبوك يكرر السلطة الأبوية، بل يضاعف المحنة والهوة بين الجنسين؛ لأنه عالم خالٍ من القيود والضوابط التي تحد من تسلط طرف على الآخر؛ وبالتالي يمارس الطرف الأول سلطته على الطرف الآخر من دون رقيب ولا حسيب.

المرأة لم تستطع التحرر منه لا واقعا ولا في العالم الافتراضي والنسق التقليدي؛ ولذلك نلمس اللجوء إلى الدين للمحاججة والمقايسة عليه في بعض المسائل، ولكن هذا التوظيف للدين يكون سطحيًا في الغالب من دون تفقه حقيقي في المعاني المستعملة أو تفسيرها أو معرفة مواضع نزولها، فإن لم يتم الإذعان لهذا المقدس بسبب إساءة توظيفه، تعرض الرافض له للإقصاء عبر تكفيره، بل يحدث شرخ في هذه السلطة، خاصة في مجموعات المراهقين، فمعظم المراهقين الموجودين الآن بينهم وبين الكهول سنوات ضوئية من التكنولوجيا؛ مما يسهل عليهم التنكر والهروب من هذه السلطة الأبوية الموجودة في العالم الواقعي، ويمكن للمراهق أن يكون بحوزته ستون هوية والأب والعم والجار لا يعلم إلا بهوية واحدة، ظاهرها مثالي، فالكهول تربوا على أساس "ادخل غرفتك إذن أنت آمن"، أما الآن فـ"إذا أغلقت غرفتك ممكن يحدث أي شيء".

الرأي الثاني: الفجوة الجندرية قد تقلصت بحيث عبروا عن ذلك بما يأتي:

"السلطة الأبوية تتراجع هيمنتها في الفيسبوك؛ لأنه فضاء حر للأغلبية، قد تصنع من الفرد شخصية متصنعة لا تتوافق والشخصية الواقعية، إلا إذا كان هنالك قيد، كمتابعة الأفراد لأهاليهم ومراقبتهم بصفة دورية؛ الرقابة غالبا ما تكون منعدمة في هذه الفضاءات، والفرد مسؤول عن تصرفاته هو لا عن غيره... كما أنه لا يستشعر رقابة أحد داخل هذا العالم الأزرق، فالحرية المطلقة للجيل الجديد أدت إلى ضمور كبير في العادات والتقاليد وصفات المجتمع، أضف إلى ذلك الكم الهائل من المعلومات والمغالطات المتاحة التي تجعل الإنسان دائما في شك وحيرة من عاداته وتقاليده وبحث عن البديل بفضل العولمة".

- ونخلص إلى نتيجة، مفادها أنه لا أحد ينكر ما حققته وسائل التواصل من إنجازات، ونحن لا نقصد هنا إنجازات كبيرة، لكن دون إجحاف جعلت العالم قرية صغيرة جاعلة الفرد مركزها، بيد أن بعض التجاوزات في هذا الفضاء قلص من حجم ما حققته؛ فالرقابة شبه غائبة، وهذا ما زاد الطين بلة؛ إذ صارت الرقابة ضرورة من ضروريات هذا الفضاء، فمواقع التواصل الاجتماعي بصفة عامة - الفيسبوك مثال - هو سلاح ذو حدين، والواقع يثبت أن كمية الضرر التي لحقت بالمجتمع العربي الإسلامي شكلت الضربة التي قسمت ظهر المجتمع، فالفروق في شبكات التواصل الاجتماعي قد تختفي ظاهريا، لكنها تظهر أثناء النقاشات والملاسنات واختلاف الرأي الذي يفضح ذلك التصنع بعدم وجود فروق بين الجنسين أو بين البيض والسود، فالفيسبوك حفلة تنكرية، ولكن بمجرد اختلاف الرأي تسقط كل الأقنعة وتظهر فيه الترسبات الذهنية والأمراض الاجتماعية كلها، وهذا ما عبرت عنه إحدى المشاركات بقولها:

"مجتمعنا في الواقع الافتراضي يدعي المثالية، غير أن الأشخاص أنفسهم هم في الواقع جزء من هذه المشاكل، فالتحرش الافتراضي يعكس فعلا التحرش في الواقع لكن بمستويات أعلى؛ لأنه تعدى حدود الزمكانية، مثال لو في منشور ما يتكلم عن التحرش نجد أغلب التعليقات توحي بأن التحرش يتعدى الحرمات، ولكن الشخص نفسه من خلال نافذة الخاص تجده يتحرش بالبنات".

وذهبت إحدى المشاركات إلى أن سبب الفروق الجنسية والجندرية والعرقية السائدة بالمجتمع ما هو إلا خلفية استعمارية برجوازية، فكل واحد يرى نفسه الأفضل، وكل واحد يكره الاختلاف حتى في نطق الكلمات، ولكنه يقوم بذلك.

وبالتالي؛ تتفق هذه الدراسة مع دراسة فضيلة وزهية (٢٠١٧) وتختلف مع دراسة بلقاسم أمين (٢٠١٨)؛ كون المرأة الجزائرية تتعرض للكثير من الإشكاليات التي تواجه تشكيلها لهويتها الرقمية، ومن بين هذه الإشكاليات إشكالية الجندر التي تؤرقها، ويتضح ذلك جليًّا في نتائج الدراسة التي توصل إليها الباحثان، وتنفي فرضية تحرر المرأة من التهميش في الفضاءات الافتراضية؛ لما لها من مميزات ذكرها الباحث بلقاسم أمين في دراسته (بلقاسم أمين ٢٠١٨، ٢٦).

الخلاصة

انتظمت الدراسة حول الأفق الإشكالي المتمثل في إمكانيات تشكيل هويات رقمية متحررة من قيود النوع الاجتماعي، وتمكنها من البروز الرمزي والتفاعل والتمثيل والاستعراض؛ حيث حاولت طول مسارها البحثي تكييف مكتسباتها النظرية والتسلح بالكفايات المنهجية والأداءات الضرورية؛ من أجل التحكم في

الوضعيات المركبة التي انتظرت مواجهتها في مقاربة المظاهر والمخرجات السوسيوثقافية والرمزية والخطابية لشبكات التواصل الاجتماعي.

ضمن هذا السياق، حاولت الدراسة إيجاد نقطة انطلاق صلبة؛ بغية الاقتراب من إشكالية تأثير النوع الاجتماعي على تشكيل الهوية الرقمية لمستخدمي شبكة الفيسبوك بالجزائر بالتركيز على المرأة مقارنة بالرجل، انطلاقًا من الافتراض القائل بأن هذا الفضاء الرقمي يتسم بقدر عالٍ من اللامركزية، وينتهي بالتدريج إلى تفكيك مفهوم الهوية التقليدية ونشوء ما يسمى بالهوية الافتراضية أو الرقمية بشكل تملأه الآمال والطموحات طامعة في هذه الوسيلة الجديدة - بما تحمله من إمكانيات وسمات متفردة - أن تحسن من الصورة النمطية للمرة التي كرستها تلك الوسائل الإعلامية الجماهيرية التقليدية ضمن سياق رقمي قفز على الحدود وحطم جل القيود، وتجاوز الإكراهات الفيزيائية المرتبطة بسياقات الحضور وطقوس المكان.

هل تحرر شبكات التواصل الاجتماعي النساء من أجسادهن؟ هل تعني إمكانية اتخاذ هويات متعددة ومختلفة أن مشكلات التجسد في الحياة الواقعية - القمع، والتحرش، والاستغلال، والألم - تحل في هذه الفضاءات الرقمية؟ فنتائج الدراسة أكدت أنه مع الإصرار المستمر للمرأة الجزائرية على الوجود في الفضاء الافتراضي وتجاوزها لحدود البيت برز الكثير من التناقضات والصراعات الفكرية والأيديولوجية حول مركزها وأدوارها الاجتماعية الموكلة إليها؛ ذلك لأن الرجل قد تعوَّد على أن المرأة بوصفها نوعًا اجتماعيًّا خلقت من أجل البيت وتربية الأبناء، وأن العالم الخارجي هو عالم خاص به، وأمام هذا الوضع أصبح الرجل يتخوف من أن يفقد سيطرته على هذا الفضاء الخارجي وأن تأخذه منه المرأة، ولهذا يعمل على جندرة هذا الفضاء الرقمي دفاعا عن حق وعقيدة يؤمن بهما؛ ذلك أن اقتحام المرأة للعالم الافتراضي هو تطفل على خصائصه وطباعه، فاتجه البعض منهم للتنمر أو حتى إلى التهديد الالكتروني؛ لاستبعادها من هذا الفضاء ولتذكيرها الدائم بأدوارها الجندرية، فاتجهت المرأة لتبني هويات مستعارة وأخرى مزيفة، وأخريات يجاهرن بهوياتهن الحقيقية تحمل إحدى محددات هويتهن الحقيقية، إما اسم أو صورة أو جنس أو عمر أو معتقد أو كلها، وهذا ما يؤكد أن شبكات التواصل الاجتماعي لا تمثل فضاءات منفصلة عن السياق الاجتماعي وغير منقطعة عن القوى الثقافية الاجتماعية وأشكال الهيمنة وعدم المساواة التي تكونه.

فالجسد هو النقطة الأولى للتفاعل مع أي منجز تكنولوجي، سواء التكيف مع السلم الكهربي، أو تعلم تشغيل جهاز التحكم في الألعاب الإلكترونية، أو من خلال التسجيل في أي موقع يطلب منك تحديد الجنس، فعندما ينشئ المستخدم حسابا أو بروفايل في الفيسبوك يطلب منه تقديم عدد من المعلومات الأساسية، ويعد "تحديد الجنس" المجال الوحيد الذي يحيل إلى السمات الفيزيائية للمستخدم والتي تربطه

بالواقع الفيزيائي، في حين تشير كل المجالات الأخرى إلى الجوانب السوسيوثقافية الخاصة بالمستخدم مثل: وجهة النظر السياسية، الحالة المدنية وغيرها، فالمتغير الوحيد الذي يحيلنا إلى الواقع الفيزيائي هو الجنس إذا تم تحديده بشكل صحيح، وإن ربط الواقع بالافتراض من خلال هذا المتغير الوحيد وهو الجنس من شأنه أن ينقل معه كل القضايا المتعلقة بالمرأة/الرجل من الواقع للافتراض سواء فيما يتعلق بالمرأة وتفكيرها وتمثلاتها الذاتية في الواقع أو بالنسبة لنظرة الرجل إليها، فالمتأمل في النتائج يجد أن أغلب الإناث يكتفين بنشر أسمائهن وحالتهن المدنية ونشاطهن، ويعرضن عن نشر صورهن الشخصية وسنهن، وهذا من المعلوم المتحقق في الواقع وانتقل إلى العالم الافتراضي أيضا. وهذا ما يتنافى مع من يعتقدون أن هنالك حدودا فاصلة بين الواقع والعالم الافتراضي.

وهو منطق يبقى على ثنائية العقل/الجسد المرمز لها بالذكر/الأنثى، ومن بين المشكلات التي يجب تجاوزها لتحقيق المساواة الجندرية في البيئة الرقمية ما يأتي:

- هناك مشكلة النفاذ الأساسية، كم من النساء يستطعن النفاذ إلى شبكات التواصل الاجتماعي؟ يحتاج هذا السؤال إلى المزيد من التحسين والتعديل، بالنظر إلى الخلفيات الطبقية والعرقية للنساء اللاتي يمتلكن أو لا يمتلكن منفذا.
- ثمة مشكلة ثانية وهي "دور النساء" في صنع التكنولوجيا بوصفها أدوات للابتكار الفني والتغيير، فنادرًا ما يشتركن في التصميم والبحث اللذين يخلقان التكنولوجيا.
- المشكلة الأساسية الثالثة هي مشكلة "التمثيل"؛ فإذا كانت مصطلحات الثقافة الإلكترونية مثل المصفوفة (الماتريكس) (مشتقة من الكلمة اللاتينية "ماتر، التي تعني الأم") و"التوصيل بالإيلاج"، مرمزة بوضوح بلغة النوع، والمكتب أو الصفحة وليس البيت أو المنزل، فيصبح من المهم التساؤل كيف يصبح الفضاء الإلكتروني غير مصطبغ بالنوع.

تعزز تمثيلات النساء بوصفهن متخلفات تكنولوجيا وكائنات ذات طابع جنسي، ومستخدمات سلبيات، معادلات القوة القائمة على النوع المستمدة من العالم الواقعي تعم الإنترنت بل حتى تطغى وتخيم عليه باستمرار، موحية بأن الفضاء الإلكتروني قائم على النوع، مثله مثل العالم الواقعي.

المراجع

أولاً: المراجع الأجنبية:

Borwari, Sakinah, and Sadeq Hamami. 2015. "Arab Women in Virtual Discussions: A Study of Women's Representation on Traditional Media Pages on Facebook." *Center of Arab Women for Training and Research (CAWTAR)* 169-289.

Davis, Shannon. 2019. *SAGE Knowledge.* March 02. Accessed December 13, 2020. http://sk.sagepub.com/reference/gender/n40.xml.

Engels, Friedrich. 1975. *The Origin of the Family, Private Property and the State (Translated into Arabic by Ezz Al-Arab Ahmed).* Moscow: International Publishers.

Fayon, David. 2010. *Web 2.0 et au-delà - nouveaux internautes, du surfeur à l'acteur (MEDIAS ET PUBLI).* Paris: ECONOMICA.

Guyonnet, Christine, and Eric Neveu. 2004. *Masculins, Sociologie de genre.* Paris: Paris Armand Colin.

Hammersley, Martyn, and Paul Atkinson. 1995. *Ethnography Principle and Practice.* NewYork: Routledge.

Heath, S., and B. Winston. 1982. *Questioning at Home and at School: A Comparative Study. In G. D. Spindler (ed). Doing the Ethnography of Schooling.* New York: Holt.

Hill, Patricia. 2006. *Race Class and Gender as Categories of Analysis and Connection.* Yale: Yale University Press.

Horst, Heather, Larissa Hjorth, and Jo Tacchi. 2012. "Rethinking Ethnography: An Introduction." *Media International Australia* 86-93.

King, Lisa. 2000. "Gender Issues in Online Communities." *Computer Professionals for Social Responsibility (CPSR)* 3611-27.

LaPin, Gianna. 1998. *Pick a Gender and Get Back to Us, How Cyberspace Affects Who We Are.* May 01. Accessed December 16, 2020.

http://www.fragment.nl/mirror/various/LaPin_G.1998.Pick_a_gender_and_get_back_to_us.htm.

Lorber, Judith. 2011. "The Social Construction of Gender." In *The Inequality Reader*, by David B. Grusky and Szonja Szelényi, 85-97. New York: Routledge.

Trauth, Eileen M. 2006. "Theorizing gender and information technology research." In *Encyclopedia of gender and information technology*, pp. 1154-1159. IGI Global. *Research Gate.* January 12. Accessed December 11, 2020. https://www.researchgate.net/publication/314677545_Theorizing_Gender_and_Information_Technology_Research.

Marziyeh, Ebrahimit, and Salaverría Ramón. 2015. "Virtual identities of Muslim women a case study of Iranian Facebook Use." *School of Communication Observatorio Journal 9 (1)* 159-170.

Mead, Margaret. 2000. *Sex and temperament in three primitive societies.* London: Harper Collins Publishers.

Okly, Ann. 1998. *Sex, Gender and Society.* England: Gower House.

Plant, Sadie. 1997. *Zeros and Ones: Digital Women and the New Technoculture.* London: Fourth Estate.

Schenker, Nathaniel, Trivellore Raghunathan, and Irina Bondarenko. 2010. "Improving on analyses of self-reported data in a large-scale health survey by using information from an examination-based survey." *PubMed* 533-45.

Scott, Joan Wallach. 1988. *Gender and the Politics of History.* New York: Columbia University Press.

Thompson, Alyson. 2012. "To Post or Not to Post: An Examination of Gender Differences in Undergraduates Self-Disclosure on Facebook." *Journal of School of Communication Studies, Liberty University* 14-25.

Wajcman, Judy. 1991. *Feminism confronts technology.* Pennsilvania: Penn State University Press.

Wajcman, Judy. 2007. "From women and technology to gendered technoscience." *Community and Society 10 (3)* 69-89.

Wright, Michelle. 2005. "Finding a Place in Cyberspace: Black Women, Technology and Identity." *Frontiers: A Journal of Women Studies* 72-96.

ثانيًا: المراجع العربية:

أوكين، سوزان. ٢٠١٤. *النساء في الفكر السياسي العربي*. ترجمة عبد الفتاح إمام. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة. مصر.

برديو، بيار. ١٩٩٤. *العنف الرمزي: بحث في أصول علم الاجتماع التربوي*. ترجمة نظير جاهل. المجلد الطبعة الأولى. بيروت: المركز الثقافي العربي.

بن عمارة، وأمين، بلقاسم. ٢٠١٨. دور الوسائط الاتصالية الجديدة في تشكيل الفضاءات العمومية الهامشية النسائية داخل الحيز الافتراضي: دراسة ميدانية. بحث مكمل للدكتوراه. جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، كلية الاعلام والاتصال.

بوزيان، نصر الدين. ٢٠١٤. صورة المرأة العربية في الاعلام الجديد بين الواقع والمواقع، *مجلة العلوم الإنسانية*. المجلد ٢٥ العدد ٣: ٣٥-٥٠.

تومي، فضيلة، وزهية.٢٠١٧. الحضور الرقمي للمرأة الجزائرية عبر الفضاءات الافتراضية: دراسة تحليلية لقضايا المرأة عبر صفحات الفايسبوك. *مجلة الباحث الاعلامي*، المجلد ١٧: ٣٢-٤٧.

عصمت، محمد حوسو. ٢٠٠٩. *الجندر: الأبعاد الثقافية والاجتماعية*. عمان: دار الشروق.